مصطفى المعداوي (بدايات التحول في الشعر المغربي)

محمد السبايلي

1) مصطفى المعداوى والنسيان ...

غياب النقد الشعرى فى المغرب وتخلفه عن مواكبة الابداع الشعرى، نتج عنه بالمقابل ، تعثر فى هذا الابداع ، وتكديس الغبار على مراحله الاولى واذا كانت مهمة النقد أن يدرس الانتاج الجديد فان من مهامه أيضا الا ينسى المساهمين والفاتحين الاوائل لهذا الانتاج

ولعل مصطفى المعداوى أبرز وجه فى الشعر المغربى الحديث ، نال نال النصيب الاوفر من «داء النسيان» . رغم الاهمية التاريخية لشعره، باعتبار المرحلة التى عبر عنها . وقد ساهمت كثير من العوامل فى **(نسيان)** هذا الشاعر وترسيخ جدران الصمت حول انتاجه ، يجيء فى مقدمتها : موته المبكر . وتجاهل كل الذين قاموا بدراسة شعرنا الحديث لبداياته الاولى .. بالاضافة الى غياب هذا الوجه حتى فى المهرجانات الشعرية ، على قلتها ..

وايمانا باعطاء القيمة الحقيقية لكل من ساهم فى اخصاب ثقافتنا ، نحاول أن ندرس المعداوى ، ونرفع عن انتاجه «حجر النسيان» .. وهذه ليست دراسة بالمعنى العلمى للكلمة ، بقدر ما هى تحية ومدخل وتذكير..

2) من هو المعداوى ؟

ولد مصطفى المعداوى فى مدينة الدار البيضاء سنة 1937 . اعتمد فى تثقيف نفسه على جهوده الخاصة . شارك فى حركة المقاومة سنة 1954 و 1955 ، ونفى بسبب نشاطه فيها الى مدينة تطوان فى شمال المغرب ... وقد استفاد من فترة النفى فى تثقيفه الذاتى . ساهم بعد الاستقلال فى الحركة الادبية فى الدار البيضاء وغيرها من لمدن المغربية . شارك فى تاسيس (اتحاد كتاب المغرب العربى) . مثل المغرب فى مؤتمر الشعر ببروكسيل 1961 ومات وهو فى الطريق الى الرباط فى حادثة طائرة (1)

ان المعداوى من الجيل الذى تكون قبل الاستقلال ، وتشرب بالافكار الوطنية قبل الاستقلال .. واستقامت ادواته التعبيرية مع بدايات الاستقلال .

ولقد تميزت مرحلة ما بعد 56 ــ على الاقل المرحلة التى كتبت فيها قصائد الديوان (تتراوح قصائد الديوان المؤرخة بين 60/57) بكثير من التناقضات والصراعات الاجتماعية فى المغرب ، وبكثير من الارهاصات الجماهيرية .. تمخضت فى النهاية عن ظهور تيار اليسار الوطنى سنة 59 .. وبروز الوجه التقدمى للثقافة الوطنية .

بناء على أهمية (ديــوان مصطفى المعداوى) (2) فى مجال الشعر المغربى التقدمى ، سنرى كيف واكب الشاعر أحداث المرحلة .. وما هى القضايا الاساسية التى تطرحها قراءة الديــوان ؟

الــرؤيــة العامــة للديــوان :

تتوزع قصائد الديوان مجموعة من القضايا ، تلتقى حينا لتوغل فــى التباعد أحيانا أخرى . لكنها ، فى الاغلب ، تتمحور حول الذات . انطلاقا مــن القصائد العاطفية الرومانسية ، وبعض قصائد المناسبات .. ومرورا بالقضايا الوطنية ، وتمجيد المقاومة المغربية بالخصوص .. الى التغنــى بالثــورة الجزائرية ــ تشكل الذات المحور الرئيسى والمركز الذى ينطلق منه الشاعر نحو الآخرين . والنتيجة أن الذات كثيرا ما تطغى على الشاعر وتكبلــه بقيودها ، فيسقط أسير دوائرها .. عبثا يجهد لكسر الطوق ، وطرق أبواب النجاة ... هكذا تتحطم القضية على صخرة الذات .

اعتمادا على هذه النقطة الاساسية ، نستطيع أن نصف ونحكم علــى القضايا الاساسية التى عبر عنها الديوان . ويمكن ان نوجز هذه القضايــا فيما يلــى :

أ الجانب العاطفى الرومانســى :

بالاضافة الى القصائد الغنائية الذاتية الصرفة ، تفرض ذات الشاعر وجودها فى كثير من المناسبات .. فالذات هى النافذة التى يطل منها الشاعر على الواقع ، والذات هى الخيط الرئيسى الذى يجمع بين كل القضايا .. هذه الذات طبعت برومانسيتها الديوان ، واجهضت الكثــير من التجــارب الصادقة .. فغالبا ما تدخل هذا العنصر ــ دون ارادة الشاعر ــ وشكــل نقطة الانطلاق ونقطة الوصول .. ونقطة الاستراحة أيضا .. على العموم ، هناك نمو للذات ، لكن ليس لصالح القضية أو فى تــواز معها ، بــل على حسابهــا :

أنــا عــائــد لــك للخراف والارتعاشات والــراح
أنــا عائــد لــك للذؤابــة بالحبــور وبالاقــداح
انــا عائــد لــك للــوداعــة فى مآقيــك المــلاح
فاستقبلى عهد الصبابــة فى تــواشيــح الصبــاح
ولتنشــدى نغم الجــلاء يتيــه ممــدود الجــناح

(عودة. ص. 10)

ب ــ قضـــايـــا وطـــنـــيـــــة :

نطرق مجموعه من قصائد الديوان بعض القضايا الوطنية التى فجرتها التناقضات التى برزت على الساحة بعد الاستقلال، نتيجة للتركة الاستعمارية .. وجاء تعبير المعداوى عن بعض هذه القضايا مغلفا برؤيا ضبابية ، غائمة أحيانا ، وصفية تقريرية ، أحيانا أخرى.. فلم يستطع انتاجه ، فى هذا المجال، إن ينفذ الى جوهر المشكل ، ليعريه او يدينه .. اقصى ما وصل اليه هـــو الاحتجـــاج الرومانســـى .

علـــى ضفـــة الســـاحـــل المـــلـــهـــم
وقـــفـــت اســـائـــل شعبـــى الـــوديـــع
« عـــلام التبـــرم فيـــمـــا الـــرجـــوع ؟ »
وجـــاشـــت بصـــدرى اغـــانـــى الـــرعـــاة
لـــهـــذا الصبـــاح الجمـــيـــل النـــصـــوع
وكـــيـــف يـــغـــنـــون مـــلء البـــطـــاح
لســـرب فـــراش لـــنـــبـــع يـــفـــيـــض
لمـــاشـــيـــة عـــائـــدة . . .

(اسياد وظما : ص. 31)

حقيقة ان الشاعر يشير الى الاستغلال ، لكن باعتبار انه حالة عانـى منها الانسان المغربى فى الماضى (فى مرحلة الاستعمار) وحتى محاولة اسقاط الماضى على الحاضـــر ، باللجوء الى المقارنة بينهما ، تفقد هذا الحاضر هويته لانها تسعى الى تجميد حركة التاريخ ، وتكريس المقولة : (التاريخ يعيـــد نفســـه) .

وعـــادت بـــى الذكـــريـــات الطـــفـــاح
الـــى الامـــس نـــجـــتـــر فيـــه العـــنـــاء
الـــى حقـــلـــنـــا الاخضـــر
وثـــــورة اصـــحـــابـــه الكادحـــين
الـــى منـــهـــل ازلـــى الـــرحيـــق
رتـــعـــنـــا بشـــطـــآنـــه المـــعـــشـــبـــة
الـــى الـــريـــف حيـــث الظـــمـــاء
وجـــوه ملبـــدة شـــاحـــبـــة
الـــى عـــزبـــة الســـيـــد
وشقـــوة عمـــالهـــا الطبقـــة
وادركـــــت انـــا خلصـــنـــا وان الوراء
لـــكـــل الانـــــام
وقـــلت اياشعب فيما التبرم فيما الرجـــوع

(أسياد وظمـــا : ص 32/31)

لقد واكب مصطفى المعداوى بعض الاحداث الوطنية عبر مجموعة من قصائد الديوان (**خطى واهية. ص 21/دمعة بعد الحريق. ص 25/ أسياد وظماً . ص 31/ أغنية ذابلة . صفحة 35/ عند باب المدرسة . ص 51/ رسالة الى ايزنهاور . ص 55/ مولد شعب. ص 60/ المجد للابطال. ص 63 الدستور الوشى المعطر . ص 118/ رسالة الى الجنرال ديغول ص. 139..**)

وتتلخص أهم القضايا التى طرقها والاحداث التى عرض لها ، كالتالى: الارض والفلاح/ الهجرة من القرية الى المدينة/ الاضرابات العمالية ومشاكل العمال / مشكل التعليم / مدن القصدير / القواعد الاجنبية / الدستور.. الخ.

لكن تناول المعداوى لهذه القضايا ، كثيرا ما كانت تغلفه العاطفة ، وتحجبه ضبابيات الذات .. أو يطرح من زاوية جانبية ، بل وبنظرة ماضية أو لنية دعائية (دمعة بعد الحريق / اسياد وظماً / رسالة الى ايزنهاور / الدستور والوشى المعطر / رسالة الى الجنرال ديغول...) هناك وصف لمظاهر الداء الخارجية ، دون اشارة لاعراضه أو احاطة بأسبابه . وهناك ايضا انكفاء الى الوراء ، وطرح لتشنجات الذات حتى عند التعرض لقضايا اجتماعية وسياسية . ان ابتسار الرؤيا وضيق افقها ، تولد عنه فى نهاية المطاف بروز التجربة على السطح .

ج ــ تمجيد مرحلة المقاومة :

الدائرة المغلقة التى دار فيها كثير من الانتاج الادبى فى جزائر ما بعد الاستقلال، وما زال يدور.. هى تمجيد مرحلة تاريخية ماضية (مرحلة المقاومة الجزائرية . لقد جندت جميع أشكال التعبير الفنى الادبى فى الجزائر لتمجيد هذه المرحلة (شعر ــ رواية ــ مسرح ــ سينما ــ تشكيل...).. نفس الدائرة التصقت فيها أغلب قصائد المعداوى الوطنية .. ودارت داخل محيطها كثيرا . ورغم اهمية مرحلة المقاومة ــ سواء فى المغرب أو فى الجزائر ــ فان تمجيدها لا يكتسى حجمه الحقيقى الا فى الاطار المحدد والموضوعى .. اطار ربط الماضى بالحاضر ، دون سلخ احدهما عن الاخر انطلاقا من الواقع وما يفرضه هذا الواقع من تناقضات على المستوى العام.. بدون الاجابة على هذا السؤال، يبقىكل تجميد مجانا مادام ينظر الىالماضى منفصلا عن الحاضر ، ودون أن يربطه بالواقع .. ويبقى بالتالى هروبا ــ من هذا الواقع ونكوصا يبحث عن «فردوس مفقود» .

يا اخوتى فلنحمل الرشاش نمضى للجهاد
ما بيننا الا اخ يفدى بلاده بالفوائد
ولنمتطى سفن العزائم نقتفى اثر المنادى
ولنسكن الجبل العتيد ونرتمى بين النجاد
بسلاحنا بالعزم نقضم حصنهم حصن الاعادى
انا اعدنا مجدنا ياويل أعداء البلاد

يا اخوتى فلتمرحوا فى ليلة العيد السعيد
ولتحرقوا كل البخور وعطروا العهد الجديد
(من ذكريات يوم النضال ص 20)

«هل اعادة المجد» تنحصر فى طرد الاستعمار .. أم فى مواجهة الوضعية الجديدة والتناقضات الجديدة التى برزت فى المجتمع المغربى ؟ ان تمجيد الماضى، حتى اذا تم، يجب أن يتم من خلال الوعى بالحاضر، أى من خلال ما قدمه للجماهير ، وليس العكس .. الى هنا يبقى المعداوى مجرد مردد لاحداث تاريخية ، وعازف على قيتارة بدون أوتار . يسبح فوق السطح دون أن يستطيع النفاذ الى الاعماق . يلهث خلف التاريخ دون أن يتمكن من المشاركة فى حركته . فيتجاوزه التاريخ .. وحتى عندما يحاول المعداوى أن يدعو الى استمرار المقاومة فانه سرعان ما يرتد الى الوراء ، وتغيم «**الدعوة**» فى ضباب «**الذكرى**» .

د ـ الثورة الجزائرية

خصص المعداوى جزءا كبيرا من انتاجه للتغنى بالثور ةالجزائرية .. كانت الثورة يومذاك تعيش أيامها الساخنة ، وكانت أصوات المناصرة تتعالى من كل مكان .. وحين نقرأ قصائد الديوان حول هذه الثورة ، نلمس فيها «صدقا وحرارة» لانكاد نجدهما فى كثير من القصائد ذات المضامين الوطنية .. والشاعر وان لم يفرض قصائد (خاصة)، الا أن اسم الجزائر قد تردد فى كثير من قصائده وشكل نغمة أساسية فى ايقاع الديوان (**الهيب المقدس . ص 11 / أغنية للنسر العربى . ص 37 / أغنية للسلام . ص 40 اناشيد شعبى الثائر . ص 90 / أغنية الفجر الجديد ص 114 / أنشودة للبلد الاخضر ص 132**) .

وفى انعدام موقف ايديولوجى واضح ، تبقى طريقة تعامل الشاعر مع الثورة الجزائرية طريقة غنائية وحماسية ، تسير وراء المعركة وتشيد بها كفكرة مجردة ، مركزها ذات الشاعر .

انا يا جزائر وسط الخضم تحطم امواجه مركبى
انا قد سمعت هضاب النحيب تناجى طيوف الغد الطيب
وفى كل بيت لنا ماتم وفى كل مهد عويل صبى
فيا أم هلا ازحت الستار وقلت لتونس والمغرب
بأن الجزائر قبر الدخيل يموت على ضفتيها الغبى
وان الجزائر فجر اضاء يعيد الحياة الى العرب
(شعوب تطلب الحرية ص 81)

ان الشاعر كثيرا ما يطغى عليه الحماس ، وسرعان ما تسقط الفكرة ـ الغير الناضجة ـ فى قالب «أناشيدى» تصفيقى ..

يانهيب الصيحة الكبرى تغديك الحناجر

يـــوم ارسلت وميضـــا وتحديـــت المخاطر
فانطلقنا بلظـــى الـــذود ليـــوثا وكـــواسر
للصحارى الشم نحميها : مطايـــا وبواخـــر
(اللهيب المقدس ص 12)

ويتحول الهتاف والتقدير الى تهويـــم رومانســى ، فى معركة تقودهـــا البنـــدقـــيـــة :

أســـرب الحمـــام
اذا مـــررت بأرض الحبيبـــة
فلا تنســـى ان تنثرن البشـــائر
بأرض الجزائـــر
فلى اخـــوة وصبايـــا هنـــاك
خرجـــن جميـــعا الـــى المقصلـــة
(أغنية للسلام. ص42)

اتساءل : هل استطاع المعداوى أن ينجح فى توظيف شعره للثـــورة الجزائرية ـــ باعتبار أنها ثورة ضد الاحتلال ـــ والـــى أى حد استطاع أن يوضح موقفه تجاهها ؟ ... مبدئيا ، لقد حاول الشاعر أن يعبر عـــن هـــذه الثورة ، وأكد تضامنه معها ، وهو متقدم فى مرحلته التاريخية .. لكنه يفتقد النضج فى المستويين : الفنى والفكرى . لقد اكتسح تعبيره الانفعال ، فانساق وراء الهتاف ، ودار فى القاموس «الاناشيدى» .. يحث بعقلية فروسيـــة على الثورة واستمرارها وتدعيمها .. والنتيجة ان المعداوى تغنى بالثـــورة الجزائرية «بنوع من الشفافية والاتزان ، وبنوع من الشفافية أيضا» (3).

تميزت المرحلة التى عبر عنها المعداوى بكثير من الصراعات. وفى مجال التعبير كان الصراع حاميا بين القديم والجديد ، حول مفهوم الشعر ووظيفته ورسالته . لقد كان هذا الصراع بالاساس صراعا بـــين التقليـــد والتجديد ، وكان مصطفى المعداوى من أوائل الشعراء التقدميين الذيـــن نادوا بتجديد القصيدة المغربية حتى تساير روح العصر ، وتعبر بصـــدق عن الواقع (هذا دون أن ننسى مساهمة محمد الحبيب) .

فى الجانب المقابل كان هناك تيار آخر ، سقط عند عتبة الماضـــى، فلم يستطع تجاوزها .. وانبرى لمعاداة الجديد والدفاع عن التقليد «والتقليد هنا بالروح والموضوع ، والفكرة ، أكثر مما هو بالمظهر والاسلـــوب ... وينزع هذا التيار فى عمومه منزع المحافظة على الشعر فى وزنه وأسلوبه» ومنزع المحافظة اكثر ، على ابقائه اداة ترفيه للنخبة المختارة النيرة ..«(4)

لقد كان الشعر الجديد فى بداياته ، وكان الفكر الوطنى التقدمى أيضا فى بداياته .. فكانت المواجهة فى الحقيقـــة صعبة .. امتـــدت على امتـــداد الستينات ، ولم تهدأ الا مع مطالع السبعينات ، حين بدأت القصيدة الجديدة

تفرض حضورها ، وتؤكد خصوصيتها وانتماءها للانسان المغربى ــ العربى .ذلك ان المواجهة قد اكتست طابعا مخالفا .

ويكفى المعداوى أنه أحد المواجهين الاوائل والفاتحين الرواد لهـذا الشعر الذين رافقوا بداياته الاولى .. لقد كان بداية فى هذا الطريق الشاق، ولكل بدايـة تعثـرات ..

تأسيسا على ما سبق ورغم المآخذ التى تفرض نفسها على انتـاج الخمسينات والستينات ، فان ذلك لا يمنع من دراسـة هذا النـتاج بكـل اتجاهاته .. والشعر المغربى التقدمى الذى ظهر خلال مرحلة المقاومة وبعد الاستقلال يكاد أن يكون مجهولا فى غياب عن النقد والتقيـيم ، رغم أنه يمثل مرحلة مهمة من تاريخنا الوطنى تركت أثرا واضحا على واقعنا الثقافى ، ورغم أن هذه المرحلة كانت تحمل فى طياتها تيارا خصبـا وجذابـا نحـو المستقبل ، بغض النظر عما قد يظهر لنا من الانقطاعات الظاهرية بـين شعـراء هذه المرحلة والذين أتوا بعدهم .

هـوامش

(1) ظهر أنفلاف : الخلفـى من الديوان .
(2) من منشورات اتحاد كتاب المغرب العربى ــ طبع دار الكتاب .
(3) عبد القادر الشاوى . أقلام . العدد 7. دجنبر 73 ص. 70
(4) محمـد الحبيب . نجوم فى يدى «المقدمة ص 43».